



أم دُورَة الكتاب

تدبر سورة الفاتحة

تفسير سورة الفاتحة
من كتاب تدبرات ابن القيم - للسبهيان

المحاضرة الثانية

المشروع العلمي المتكامل لطالب العلم

لد. أبو بكر القاسمي

السلام عليكم ورحمة الله، بسم الله، والصلاة والسلام على رسول الله
صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم.

ثم أما بعد...

فَإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ، وَأَحْسَنَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحَدَّثَاتُهَا، وَكُلُّ مُحَدَّثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلُّ بِدْعَةٍ
ضَلَالَةٌ، وَكُلُّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ ثُمَّ أَمَا بَعْدُ.

فَاللَّهُ ﷻ خَلَقَ عِبَادَهُ حَنَفَاءَ، فَطَرَهُمْ عَلَى الْمِيلِ إِلَيْهِ، وَالْحَنِيفُ هُوَ
الْمَائِلُ إِلَى اللَّهِ، الْمَعْرُضُ عَنْ غَيْرِهِ.

قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ
عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا
يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].



قال ﷺ: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ».

ولم يقل ﷺ: «أَوْ يَسْلِمَانِهِ»؛ لأن الفطرة التي وُلِدَ عليها هي الإسلام.

وهذا أن الفطرة -فطرة البشر التي خُلِقُوا عليها- مقتضية للإسلام، لا نقول: قابلة للإسلام، بل هي مقتضية؛ لأن كلمة «قابلة» تفيد أنها محايدة، محايدة بين الكفر والإيمان، بين التوحيد والشرك، ولكن كلمة «مقتضية» أدق؛ فهي مقتضية للإسلام، أي هي مائلة إلى الإسلام.

ولذلك فالذي يحتاج إلى جهد، والذي يحتاج إلى بذل مجهود ليس الإسلام، بل التهويد والتنصير والتمجيس. أما إن ترك الإنسان وفطرته، فبمجرد سماع الأدلة -وقد جعل الله أدلة توحيده وأدلة صدق رسوله أكثر من الماء والهواء؛ لحاجة الناس إليهم أكثر من الماء



والهواء- بمجرد سماع الأدلة مع تلك الفطرة السليمة فإنه لا شك
يسلك طريق الإسلام.

وهذه الفطرة هي أثرٌ من آثار الميثاق الأول.

قال ﷺ: «لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ مَسَحَ عَلَى ظَهْرِهِ بِيَمِينِهِ، فَأَخْرَجَ كُلَّ
نَسَمَةٍ هُوَ خَالِقُهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ: أَلَسْتُ
بِرَبِّكُمْ؟ قَالُوا: بَلَى، شَهِدْنَا، أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ: إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا
غَافِلِينَ».

فهذا هو الميثاق الأول الذي من آثاره تلك الفطرة. ولم يكتفِ الرب
عز وجل بذلك، بل أرسل الرسل وأنزل الكتب؛ لِيُذَكِّرُوا الناس بتلك
الفطرة، وَلِيُذَكِّرُوا الناس بأصلهم وفصلهم ومصيرهم إلى الله ﷻ.



وكل هذا -عباد الله- من ربوبيته عز وجل وتربيته لعباده، وأنه ﷻ هو الله، الرب، الرحمن؛ فلا يليق به ﷻ أن يترك عباده هملاً، ولا أن يتركهم سدى بلا أمر ولا نهى، ولا يليق برحمته ﷻ أن يرزقهم مآكلهم ومشاربهم، والهواء الذي يتردد في جنبات صدورهم، ولا يرزقهم ﷻ الهدى الذي به يهتدون إليه ويستدلون به عليه ﷻ.

ولذلك أنت إذا قرأت فاتحة الكتاب -وقد بدأنا هذا البارحة- ينبغي عليك أن تستحضر هذه المعاني: أنك تتني على الله، وتحمده، وتمجده: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ○ ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ ○ ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ ○ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ○ ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ○ ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾

[الفاتحة: ٢-٧].

قد ذكرنا أن هنالك كتاباً يُسمَّى: «إرشاد الثقات إلى اتفاق الشرائع على التوحيد والمعاد والنبوات»، للإمام الشوكاني رحمه الله، وأن



كل الشرائع قد جاءت بثلاثة أصولٍ: التوحيد، والمعاد، والنبوة؛ فهذه هي أصول العقائد، وقد جاءت في الفاتحة متجليةً.

هذه الفاتحة التي قال الله عز وجل فيها: «قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نَصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ؛ فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، قَالَ اللَّهُ: حَمَدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾، قَالَ اللَّهُ: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، قَالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي، فَإِذَا قَالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾، قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ».

هذا يدلُّك على أن هذا أصلٌ في أن تذوق طعم الصلاة، وأن تخشع في الصلاة، وأن تتدبر كتاب الله ﷻ، وهو أن تتدبر فاتحة الكتاب. وكما ذكرنا أنه قد تُنَيَّ فيها القرآن ثنِيًّا؛ أي: طُويَ فيها طَيًّا؛ أي:



جُمِعَ فيها أصول ما جاء في القرآن؛ ولذلك امتنَّ الله بنزولها على عبده: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ [الحجر: ٨٧].

وقد بلغنا إلى قوله ﷺ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ○ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ٢-٣]. ذكرنا معنى الحمد، وذكرنا أنه معنى مركب من المحبة والمدح، وذكرنا الفرق بينه وبين الشكر. والحمد مقام من مقامات الإيمان، ومنزلة من منازل السالكين إلى الله.

قال ﷺ: «أَفْضَلُ عِبَادِ اللَّهِ الْحَمَّادُونَ».

وقال ﷺ: «مَنْ قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ صَادِقًا مِنْ قَلْبِهِ، كُتِبَتْ لَهُ ثَلَاثُونَ حَسَنَةً».

وقال ﷺ: «الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأَنِ -أَوْ: تَمْلَأُ- مَا بَيْنَ السَّمَاءَاتِ



وَالْأَرْضِ، وَالصَّلَاةِ نُورٌ، وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ، وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ، وَالْقُرْآنُ
حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ، كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو؛ فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا»

الشاهد: «وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ»؛ ما هي كلمة «الحمد لله» التي
تملأ الميزان؟ إذا شاهد العبد صفات ربه ﷻ، وأسماءه وصفاته،
وجلاله وجماله وكَماله، وآلاءه ﷻ ونعمه؛ فإن الله يُحَمِّدُ على الكمال
والجمال ﷻ والجلال، وَيُحَمِّدُ على النوال -والنوال هو العطاء وهو
النعم-؛ فكل هذا يشهده قلب الحامد لله ﷻ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ»
[الفاتحة: ٢].

طبعًا وذكر هنا اسم «الله»، وذكر اسم «الرَّبِّ»؛ وقد ذكرنا معنى
الرب: هو السيد، الأمر، الناهي. ومن معانيه ﷻ: المشرِّع، ومن
معانيه -كما ذكرنا-: الخالق، الرازق، المدبر، المحيي، المميت،
المَلِك، المَالِك؛ كل هذا من معاني اسمه الرب ﷻ.



و«الله» هو -كما ذكرنا- الاسم العَلَمُ الدال على الذات المقدسة، وهو على الراجح مشتقٌّ من «الإله»، وسُهِّلَتِ الهمزة وأُدْغِمَتِ اللامان، وأصبحت: «الله». وأصله من «الإله»، وأصل كلمة الإله من: وَلِهَ يَأْلُهُ إِلَاهَةً؛ والْوَلَهُ هو شدة الحب، وشدة الميل، وشدة الحنين.

يقول العرب: إذا فُصِلَ الفصيلُ -أي صغير الناقة، ابن الناقة الصغير- لو فُصِلَ عن أمه يُسْمَعُ له رغاءٌ كبكاء الصبي، صوتٌ عالٍ كأنه يبكي، فإذا ضُمَّ إلى أمه سكن؛ فيقول العرب حينها: «وَلِهَ الفصيلُ»، أي اشتاق لأمه. وفي هذه اللحظة أمه هي إلهته؛ لأنه يألُها، ويشتد ولهه بها. فالإله هو الذي تحبه القلوب، وتحار فيه العقول، وتشتاق إليه النفوس.

لذلك حقيقة قول: «لا إله إلا الله» -أي لا معبود بحق إلا الله- هي الحب لله ﷻ، ولذلك أعلى درجات السائرين هي الحب، ولذلك العبودية في الحقيقة كمال الحب مع كمال الذل، وإن كان الذل فرعاً عن الحب؛ كما يقول أحد الشعراء:



اخْضَعْ وَذِلَّ لِمَنْ تُحِبُّ فَلَيْسَ فِي ... عُرْفِ الْهَوَى أَنْفٌ يُشَالُ وَيُعْقَدُ

إذا كنت تحب فأنت ذليل، الحب يجعلك تذلل، تنتقاد، تتبع؛ ولذلك:
كمال الحب مع كمال الذل. كمال الحب يؤدي إلى كمال الاتباع،
كمال الاستسلام، كمال الانقياد، وهذه حقيقة الإيمان: قول وعمل،
وهذه حقيقة المحبة: حب واتباع، وليس كلامًا وشعاراتٍ وغير ذلك.

المقصود: الله عز وجل هو الإله الذي تأله القلوب؛ تحبه وتشتاق
إليه، وتحار فيه العقول. وهذه مسألة في منتهى الأهمية: أن العبد في
سيره إلى الله ﷻ لا تكون عباداته وأوراده مجرد ظواهر أو مجرد
شكليات، وإنما تكون محبةً لله عز وجل وشوقًا إليه.

وهذه المحبة التي تورث الخوف والرجاء، نشبه منزلة المحبة
بالنسبة لبقية المنازل كالفرديوس الأعلى من الجنة؛ فالفرديوس أعلى
الجنة، ووسط الجنة، ومنها تفجر أنهار الجنة، وسقفها عرش



الرحمن. والمحبة كذلك: أعلى الدرجات، وأوسط الدرجات، ومنها
تفجر أنهار الدرجات والمنازل الأخرى، وسقفها عرش الرحمن.

أنت بها تتقرب إلى الله ﷻ: «وَمَا تَقْرَبُ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ
مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ، وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ،
فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ،
وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَلَئِنْ سَأَلَنِي
لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ».

هذا الحديث -حديث أبي هريرة: قول الله: «مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ
أَدْبَنْتُهُ بِالْحَرْبِ...»- فيه كيف يترقى العبد من درجة المُحِبِّ إلى
درجة المَحْبُوبِيَّة؛ ليس فقط يُحِب، بل يُحَبُّ؛ ولذلك قيلَ: ليس الشأن
أن تُحِب، وإنما الشأن أن تُحَبَّ.

ولذلك عبّر عن هذا إبراهيم الخليل عليه السلام حين ناظر قومه
وأراد أن يقيم عليهم الحجة فقال: ﴿لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦]؛



أي: الإله الذي ينبغي أن أعبدَه والذي ينبغي أن أحبه لا ينبغي أن يأفل، لا ينبغي أن يغيب؛ والله عز وجل لا يأفل ولا يغيب، ولا ينام، ولا تأخذه سِنَّةٌ ولا نومٌ، وهذا من كمال قيوميته وربوبيته، وكمال - أيضًا - ألوهيته.

فأنت لا تستغني عن الله طرفة عينٍ؛ كل نفسٍ، كل دقة قلبٍ، كل نفسٍ في جنبات صدرك، كل جريان دمٍ في عروقك؛ هذا الذي يدبره هو الله. أنت لا تستغني عن الله ربًّا طرفة عينٍ، وأنت أيضًا لا تستغني عن الله إلهاً طرفة عينٍ؛ فأنت تحيا بحبه، أنت تتنفس بذلك، وتتحرك بذلك. ولذلك قال تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾** [فاطر: ١٥].

أنت فقيرٌ إليه ربًّا: تخرج من بطن أمك جائعًا، عاريًا، تحتاج إلى من يكسوك، وإلى من يطعمك ويسقيك، ويُلقي الله الرحمة في قلبي الأبوين لكي يكونا سببًا لرحمته لك. أنت تحتاج إلى الله ربًّا في كل طرفة عينٍ، في كل دقة قلبٍ، في كل نبضٍ، في كل جريان دمٍ في



عروقك، في كل خلية يقيتها الله ﷻ من الاثني ترليون خلية
الموجودة في جسمك.

وأنت تحتاج إلى الله إلهاً: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾
[الأنبياء: ٢٢]. قلبك لو فيه إلهان، لو فيه إله غير الله، لو توجه إلى
غير الله لفسد؛ وهكذا تفسد القلوب بالشرك.

قال ﷻ: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا
لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:
٢٩].

تخيل عبدًا له أكثر من سيد: أحدهم يقول له: يمينًا، والآخر يقول له:
شمالًا، أحدهم يقول له: جنوبًا، والآخر يقول له: شمالًا، أحدهم يقول
له: شرقًا، والآخر يقول له: غربًا؛ لا يدري كيف يرضيهم، مشتت،
شقي، بئيس، عند كلٍ منهم مذموم، ولا يستطيع أن يرضي سادته.



وعبدٌ له سيّدٌ واحدٌ: يعلم رضاه وسخطه؛ يفعل ما يرضيه ويجتنب ما يسخطه.

من صاحب القلب والهَمّ المجتمع؟ ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ [الأحزاب: ٤]. من صاحب القلب المجتمع والهَمّ المجتمع من بين هذين؟ هو الذي له ربٌّ واحدٌ وسيّدٌ واحدٌ: ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾ [الزمر: ٢٩]؛ هذا هو مثال الموحّد: مستريح القلب، لا ينظر إلى الناس، لا ينظر إلى الأسباب، لا ينظر إلى النِّعم والنِّقم؛ ينظر إلى المنعم من وراء النِّعم وإلى المبتلي من وراء البلايا، وإلى المسبّب من وراء الأسباب.

ينظرُ إلى مراضِي الربِّ فيفعلُها، وإلى مساخطِهِ فيجتنبُها، لا يعبأُ بأيّ شيءٍ سوى ذلك. يحبُّ الله من كلّ قلبه، يخافُ الله من كلّ قلبه، يرجو الله من كلّ قلبه. الناسُ بالنسبةِ لَهُ لا شيءٌ في جَنبِ الله ﷻ.



قال أبو الدرداء رضي الله عنه: «لَا يَفْقَهُ الرَّجُلُ كُلَّ الْفِقْهِ حَتَّى يَكُونَ النَّاسُ عِنْدَهُ فِي جَنْبِ اللَّهِ كَأَمْثَالِ الْأَبَاعِرِ، ثُمَّ يَعُودَ إِلَى نَفْسِهِ فَيَكُونَ لَهَا أَحَقَرُ حَاقِرٍ».

يعني: الناس في جَنْبِ اللَّهِ -أوامر الناس، ورضا الناس، وسَخَطِ الناس- مقارنةً بالله لا شيء، كأَمْثَالِ الْأَبَاعِرِ والبهائم.

أهذا احتقارٌ لهم؟ كلا، بل هذا وضعٌ لهم في الموضع الصحيح بالنسبة لِمَلِكِ الْمُلُوكِ، ثم يعودُ إلى نفسه فيكونُ لها أَحَقَرُ حَاقِرٍ؛ فنفسُهُ مغلوبةٌ مهورةٌ لأمرِ اللَّهِ عز وجل، واللهُ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ نَفْسِهِ.

فإن كان النبي ﷺ ينبغي أن تكونَ محبَّتُهُ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ، ووالدِكَ، وولدِكَ، والناسِ أجمعينَ، فما بِأَلْكَ بِمَحَبَةِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ ﷻ؟! ولذلك: «الإله»، «الله»، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة:

٢].

قال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [الفاتحة: ٣].

قال الشيخ السبهان في «تدبرات ابن القيم»: قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ﴾ من اسم «الله»، وهو المألوه المعبود. وقد ذكرنا أن تجارب جمع تفسير ابن القيم رحمه الله منها: «التفسير القيم» لمحمد أويس الندوي وحققه الشيخ محمد حامد الفقي.

وكتاب «بدائع التفسير» لصالح الشامي ويُسري محمد السيد، والكتاب الذي بين أيدينا وهو «تدبرات القرآن» للسبهان. وهذه التدبرات هي أخصر كتاب فيها، تجمع الخلاصة والمفيد في هذا الباب؛ ولذلك اخترناه لنقرأ منه.

قال: قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ﴾ من اسم «الله»، وهو المألوه المعبود، ولا سبيل للعباد إلى معرفة عبادته إلا من طريق الرسل. نعم، الفطرة تدلُّك على الله عز وجل، الفطرة تدلُّك على محبته وتوحيده ﷻ، لكن



تفاصيل التشريعات لا تُكَلَّفُ بها إلا بعد إرسال الرسل، وإلا بعد بلوغ
الحجة الرسالية إليك.

هذه هي القضية؛ ومع أن الفطرة توجب أو تقتضي توحيد الله ﷻ،
فإن الله ﷻ لم يُقِمِ الحجة إلا بإرسال الرسل؛ أي: لا تكتمل حجته على
العباد إلا بإرسال الرسل: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾
[الإسراء: ١٥].

وقال ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ
الْأُمَّةِ يَهُودِيٍّ وَلَا نَصْرَانِيٍّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ،
إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ»؛ فعَلَّقَ الأمر على السماع ببعثته ورسالته
ﷺ.

فلا سبيل للعباد إلى معرفة عبادته إلا من طريق الرسل، وتفاصيل
التشريعات لا يهتدي إليها الإنسان إلا من طريق الرسل؛ ولذلك: ﴿قُلْ



إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَاللَّهُ
غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿آل عمران: ٣١﴾، ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ
عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

ولذلك لا يقوم الإسلام إلا على ساق الاستسلام لله عز وجل، والانقياد
لشريعة التي جاء بها النبي ﷺ.

كمال التوحيد وكمال المحبة لا بد أن يظهر في انقيادك، وفي قبولك
للشرع، وفي استسلامك له: ﴿وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾
[لقمان: ٢٢].

فالإخلاص والاتباع، التوحيد والاتباع، فكمال هذا الدين في توحيد
المعبود وتوحيد المتبوع؛ وتوحيد المعبود هو الله ﷻ، وتوحيد
المتبوع هو النبي محمد ﷺ.



قال: ومن اسمه «الرحمن»: ذكرنا بالأمس أن «الرحمن» ذو الرحمة العامة التي شملت البرّ والفاجر، والمؤمن والكافر، و«الرحيم» ذو الرحمة الخاصة بعباده المؤمنين.

وذكرنا أيضاً من الفروق بينهما أن «الرحمن» صفة ذات، و«الرحيم» صفة فعل، وأن «الرحمن» لا يتسمّى بها أحدٌ من الخلق ولا يجوزُ ذلك، أما «الرحيم» فقد يُوصَفُ بها بعضُ خلقه؛ فـ«الرحمن» علّم على الذات المقدسة كاسم «الله»: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ ۚ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الإسراء: ١١٠].

قال: «من اسمه الرحمن؛ فإن رحمته تمنع إهمال عباده، وعدم تعريفهم ما ينالون به غاية كمالهم؛ فمن أعطى اسمَ الرحمن حقّه، عَرَفَ أنه متضمنٌ لإرسال الرسل»: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، ﴿أَوَلَمْ يَخَفِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١].



﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٧-٥٨]، ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٩]؛ فإرسال الرسول رحمة من الله ﷺ، وإنزال القرآن رحمة.

قال: «وإنزال الكتب؛ فرحمته تضمنت إرسال الرسل وإنزال الكتب أعظم من تضمنه إنزال الغيث، وإنبات الكلاء، وإخراج الحب»؛ لأن كل هذا للأبدان وهي فانية، أما الذي يبقى في الحقيقة فهو ما يتصل بالروح ويتصل بالقلب، وهذا يترتب عليه نعيم الأبد: ﴿إِلَّا مَن أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٩].

وإن كان النبي ﷺ قد قال: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ يَرَى أَثَرَ نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ»؛ فإن كان هذا في النعم الحسية والمادية، فهذا أولى وأحرى في النعم الدينية؛ فإن كمال النعمة في إنزال الكتب وإرسال الرسل،

وقد أنعم الله علينا بذلك: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ
نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

وكمال الإنعام يكون على حسب كمال الهداية لهذا الدين؛ ولذلك:
﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ
الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦-٧].

فإن كمال النعمة مرتبط بكمال الطاعة: ﴿الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِّنَ
النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾
[النساء: ٦٩]؛ فهؤلاء هم أهل النعمة المطلقة، وهذا الكمال للنعمة
مرتبط بكمال الهداية.

فإن الله يحب أن يرى أثر نعمته عليك، يحب أن يرى أثر نعمة
القرآن عليك، أثر نعمة الصلاة، أثر هذه الراحة، أثر هذه السكينة،
أثر طلب العلم النافع والدعوة إلى الله، أثر النية الصالحة.



أثرُ الاتِّباعِ الصادقِ للنبيِّ، أثرُ حبِّ النبي ﷺ؛ أثرُ ذلك لا بد أن يُرى عليك في قسَمَاتِ وجهك، في حركاتك، في سكناتك، في سلوكك.

قال ابن عباسٍ رضي الله عنهما: «إِنَّ لِلطَّاعَةِ نُورًا فِي الْقَلْبِ، وَضِيَاءً فِي الْوَجْهِ، وَقُوَّةً فِي الْبَدَنِ، وَسَعَةً فِي الرِّزْقِ، وَمَحَبَّةً فِي قُلُوبِ الْخَلْقِ، وَإِنَّ لِلْمَعْصِيَةِ سَوَادًا فِي الْوَجْهِ، وَظُلْمَةً فِي الْقَلْبِ، وَوَهْنًا فِي الْبَدَنِ، وَضِيقًا فِي الرِّزْقِ، وَبُغْضَةً فِي قُلُوبِ الْخَلْقِ».

فهذا يُرى -عباد الله- قال: «فاقتضاء الرحمة لما تحصل به حياة القلوب والأرواح أعظم من اقتضاءها لما تحصل به حياة الأبدان».

فاقتضاء الرحمة لما تحصل به حياة القلوب -ألا وهو إنزال الوحي- : ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ



لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ
وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴾ [الشورى: ٥٢-٥٣].

حياة القلوب والأرواح تحيا بهذا الوحي، فكما أنه يحيي الأرض بعد
موتها يحيي مَوَاتَ قَلْبِكَ بعدَ موْتِهِ؛ ولذلك قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ
آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا
كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ
مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ [الحديد:
١٦-١٧].

ونحن مقبلون على شهر رمضانَ وندخلُ بوابة القرآن، والصيامِ
والقيامِ كلاهما شُرْعًا لكي تقرأ القرآنَ وتفهمه؛ ولذلك يشفعُ فيكَ
القرآنُ والصيامُ يومَ القيامةِ: يقولُ الصيامُ: «أَيُّ رَبِّ، مَنَعْتُهُ الطَّعَامَ
بِالنَّهَارِ فَشَفَعْنِي فِيهِ»، ويقولُ القرآنُ: «مَنَعْتُهُ النَّوْمَ بِاللَّيْلِ فَشَفَعْنِي
فِيهِ».



فَأَنْتَ تَصُومُ وَتَقُومُ؛ لَتَتَدَبَّرَ كِتَابَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَلَتَتَدَلَّفَ إِلَى بَوَابِ
الْقُرْآنِ -كَمَا ذَكَرْنَا هَذَا بِالْأَمْسِ-، وَلَكِي يَخَالِطُ الْقُرْآنُ قَلْبَكَ وَيَلَامِسُهُ.

تَخْلَصْتَ مِنْ كُلِّ الْأَخْلَاطِ الرَّدِيئَةِ، وَمِنْ فَضُولِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ
وَالْمَنَامِ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ؛ فـ«رُبَّ صَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ صِيَامِهِ إِلَّا الْجُوعُ
وَالْعَطَشُ، وَرُبَّ قَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ قِيَامِهِ إِلَّا التَّعَبُ وَالسَّهَرُ».

فَلَيْسَتْ هَذِهِ هِيَ الْقَضِيَّةُ، الْقَضِيَّةُ أَنْ تَتَدَبَّرَ، وَأَنْ تَفْهَمَ، وَأَنْ تَتَذَوَّقَ؛
فِيحْيَا قَلْبُكَ بِهَذَا، وَاللَّهُ قَادِرٌ عَلَى إِحْيَاءِ قَلْبِكَ بِالذِّكْرِ وَالْقُرْآنِ.

قَالَ: «فَاقْتِضَاءُ الرَّحْمَةِ لِمَا تَحْصُلُ بِهِ حَيَاةُ الْقُلُوبِ وَالْأَرْوَاحِ أَعْظَمُ
مِنْ اقْتِضَائِهَا لِمَا تَحْصُلُ بِهِ حَيَاةُ الْأَبْدَانِ وَالْأَشْبَاحِ، لَكِنَّ الْمَحْجُوبِينَ
إِنَّمَا أَدْرَكُوا مِنْ هَذَا الْأَسْمِ حِظَّ الْبَهَائِمِ وَالْدَوَابِّ، وَأَدْرَكَ مِنْهُ أَوَّلُ
الْأَلْبَابِ أَمْرًا وَرَاءَ ذَلِكَ».



فالقضية ليست في الرحمة العامة فقط، بل في الرحمة الخاصة.

قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ○ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ○ مَالِكِ يَوْمِ
الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٢-٤]؛ فهو يستحقُّ الحمدَ ﷻ على ربوبيته
وألوهيته، وعلى رحمته العامة ورحمته الخاصة التي تتجلى في أنه
مالكُ يومِ الدين؛ فهو رحمنٌ رحيمٌ، ومن آثارِ رحمته أن هنالك يومَ
قيامةٍ! قال تعالى: ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ﴾ [الفرقان: ٢٦].

فمن آثارِ رحمته ﷻ أن المُلْكَ لَهُ يومَ القيامةِ، وأنه لم يتركِ العبادَ
سُدًى هَمَلًا في الدنيا بلا أمرٍ ولا نهْيٍ، ولم يتركهم بلا جزاءٍ
وقصاصٍ في الآخرة: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨].

فمن رحمته ﷻ أن هنالك يومَ قيامةٍ يتميزُ فيه الخبيثُ من الطيبِ،
ويتميزُ فيه أهلُ الإيمانِ والصلاحِ من أهلِ الفسادِ والإفسادِ؛ ولذلك



قال تعالى: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آناً﴾ ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٤٣-٤٥].

فمن آلاءِ الله ﷻ وجودُ النارِ؛ كيفَ ذلك؟! حتى لا يستويَ المؤمنُ والكافرُ، والبرُّ والفاجرُ، حتى لا يستويا؛ ولذلك حينَ يدخلُ المؤمنُ الجنةَ وينظرُ إلى أهلِ النارِ يقولُ: ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ [الصافات: ٥٧].

فهذا من آثارِ رحمتهِ بعبادِهِ المؤمنينَ، ومن آثارِ عدلِهِ ﷻ وحكمتهِ وعزَّتِهِ مع الكفرةِ والفجرةِ المفسدينَ في الأرضِ.

ولذلك أنتَ حينَ تنظرُ إلى ذلكَ تعلمُ أنه ﷻ من رحمتهِ أن جعلَ هنالكَ يومَ ميعادٍ؛ ولذا رأى النبيُّ ﷺ وأبو ذرٍّ شاتينِ تنتطحانِ، فقال النبيُّ ﷺ: «يَا أَبَا ذَرٍّ، أَتَدْرِي فِيمَ تَنْتَطِحَانِ؟ قَالَ: لَا، قَالَ: وَلَكِنَّ اللَّهَ

يَدْرِي، وَسَيَفْضِي بَيْنَهُمَا»، هذا كانَ في العجمَاواتِ والبهائمِ!



فما بَالُكَ بِمَنْ يَقْتُلُ الشُّعُوبَ بِالْقُنَابِلِ الْكِيْمَاوِيَةِ وَالذَّرِيَةِ، وَمَلَايِينَ
النَّاسِ فِي الْحُرُوبِ الْعَالَمِيَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ؟! أَهَكَذَا يَمْضِي وَيَمُوتُ الظَّالِمُ
والمَظْلُومُ دُونَ قِصَاصٍ؟! كَلَّا!

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ
الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ۝ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾
[ص: ٢٧-٢٨].

فَالْمَلِكُ هُنَاكَ لَيْسَ لِأَحَدٍ، وَإِنَّمَا لِلَّهِ وَحْدَهُ: ﴿لَمَنْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ
الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]، الْمَلِكِ ﷻ، الْعَزِيزِ، الْحَكِيمِ، الَّذِي يَضَعُ
الشَّيْءَ فِي مَوْضِعِهِ؛ يَضَعُ الرَّحْمَةَ فِي مَوْضِعِهَا، وَالْعَذَابَ فِي
مَوْضِعِهِ.

ولذلك قال عيسى عليه السلام: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِنْ تَغْفِرْ
لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]، ولم يقل: «الغفور»



الرحيم»؛ لأنَّ المقامَ مقامُ عِزَّةٍ ومُلْكٍ، ومقامُ حكمةٍ: يَضَعُ الشَّيْءَ فِي
مَوْضِعِهِ ﷺ؛ لَأَنَّهُ ﷺ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ.

وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّ الْمُؤْمِنَ يَسْتَبْشِرُ بِذَلِكَ؛ فَإِنَّهُ ﷺ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ، هُوَ
مَلِكٌ هَذَا الْيَوْمَ ﷺ، وَرَحْمَتُهُ تَغْلِبُ غَضَبَهُ؛ أَيَّ إِنِّ مَنْ يُرْحَمُ بِالرَّحْمَةِ
أَكْثَرَ مِمَّنْ يُعَذَّبُ بِالْعَذَابِ.

وَأَسْبَابُ الرَّحْمَةِ كَثِيرَةٌ جَدًّا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ ﷻ جَعَلَ الرَّحْمَةَ مِائَةً
جِزْءٍ: أَنْزَلَ مِنْهَا فِي الدُّنْيَا جِزْءًا وَاحِدًا بِهِ يَتَرَاخَمُ الْخَلَائِقُ، وَادَّخَرَ
تِسْعَةً وَتِسْعِينَ جِزْءًا لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ.

وَفِي رِوَايَةٍ: أَنَّهُ ﷺ يَضُمُّ إِلَيْهَا ذَلِكَ الْجِزْءَ فَتَكُونُ مِائَةً جِزْءًا أَيْضًا
يَوْمَ الْقِيَامَةِ. فَرَحْمَةُ اللَّهِ عِزٌّ وَجَلٌّ تَتَجَلَّى يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

